قالت العرب

إذا غامَرتَ في شَرَفٍ مَروم فَلا تَقنَع بما دونَ النُجوم
فَطَعمُ المَوتِ في أَمرٍ صَغيرٍ كَطَعمِ المَوتِ في أَمرٍ عَظيمِ
أبو الطيب المتنبي (915م - 965م)

الشهدار
العدد 345 السنة الرابعة عشرة- الأحد 1 فبراير 2026م - 13 شعبان 1447هـ

"سيزيرين" تكشف خبايا الطب المصرى المسكوت عنها

خالد ذهنى يرسم صورة قاتمة للقطاع الطبى روائيًا بأسلوب هزلي

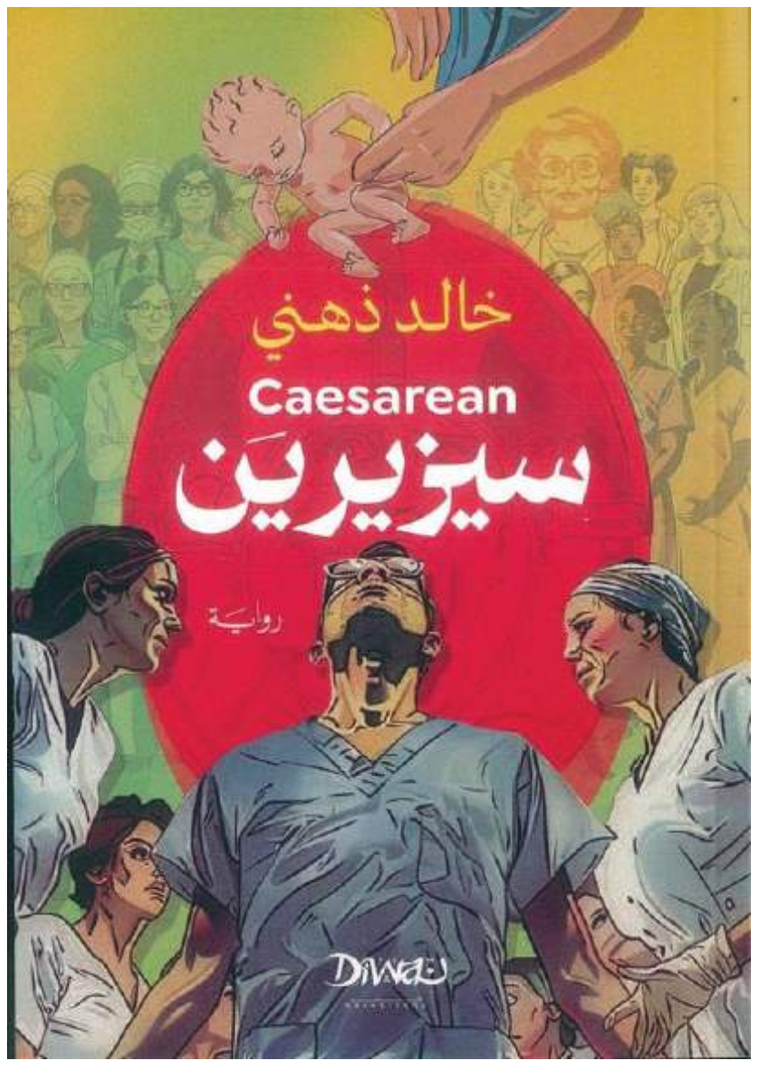

تسلط رواية «سيزيرين» (دار دون) للكاتب المصرى خالد ذهنى الضوء على الفساد المتفشى فى القطاع الطبى فى مصر. ويشير عنوان الرواية سيزيرين (Cesarean) إلى الولادة القيصرية، التى غالبًا ما تُربط خطأً بميلادٍ يوليوس قيصر، غير أن هذا الاعتقاد غير دقيق، وفقاً لما يوضحه المؤلف؛ إذ إنه فى زمن الرومان، لم تكن الولادة عبر شق بطن الأم تُجرى إلا فى حال وفاتها أو احتضارها، لأنها كانت بمثابة حكم الإعدام على الأم.

وعلى عكس المعتقد الشائع، فإن والدة يوليوس قيصر لم تمت أثناء ولادته، بل عاشت حتى بلغ ابنها الرابعة والأربعين من عمره. ويُرجّح العلماء أن التسمية تعود فى الأصل إلى قانون قيصرى كان يفرض عدم دفن أى امرأة وجنينها داخل رحمها، ما استوجب إجراء شق فى البطن لاستخراج الجنين قبل الدفن.

تتناول الرواية، كما يكشف عنوانها الفرعى التوضيحى) سيزيرين: قصة كريم رأفت، طبيب أمراض نساء وتوليد)، رحلة بطلها كريم خلال ثلاث سنوات من فترة نيابته، التى قضاها سعيًا للحصول على درجة الماجستير فى تخصص أمراض النساء والتوليد.

يقدم السرد بأسلوب هزلى ساخر، يعكس من خلاله واقع المستشفيات الجامعية فى مصر، وما يدور داخلها من تفاعلات بين الكوادر الطبية، والمعاونين لهم، والمرضى الذين يترددون عليها، كاشفا بذلك عن التحديات التى تواجه هذا القطاع الحيوي.

كسر الجدار

عمد ذهنى إلى استخدام ضمير المتكلم، لجعل السرد أكثر حميمية وقرباً من القارئ. كما كسر الجدار الرابع، بالتوجيه حديثه مباشرة إلى القارئ، لينقل حكايات متعددة ومنفصلة، لا يربط بينها سوى الطبيب السارد، الذى يستعرض المواقف التى مر بها داخل المستشفى الجامعي.

استند السرد إلى كوميديا الفارس (Farce)، وهو نوع من الكوميديا يقوم على التضخيم، المبالغة، والمحاكاة الساخرة، مع رسم الشخصيات بأسلوب كاريكاتورى ساخر. وعلى الرغم من أن هذا الأسلوب قديم وظهر فى المسرح منذ العصور الوسطى والنهضة الأوروبية، إلا أنه يُعتبر من أقل أشكال الكوميديا قيمة فى الأدب، نظرا لاعتماده على التكرار، الإسراف فى المبالغة، والسخرية من العيوب الخلقية والشخصيات النمطية، بهدف إثارة الضحك.

وفى سيزيرين تبدو السخرية حاضرة بوضوح، خاصة فى تناول الشخصيات التى يلتقى بها الراوى من مرضى وزملاء، حيث يكثر التهكم على اللهجات المحلية لأبناء الريف، سواء من الصعيد، الفلاحين، أو البدو. كما تنحو الرواية نحو التنميط، فتقدم صورة الصعيدى بوصفه قليل الذكاء، متأثرة بالنكات الشعبية والصور النمطية التى عززتها بعض الأفلام السينمائية.

ولا تتوقف السخرية عند هذا الحد، بل تمتد إلى ما يمكن وصفه بالعنصرية الطبقية، إذ تستهزئ الرواية بالفئات الدنيا من المجتمع، خاصة المرضى الذين يقصدون المستشفى للعلاج، فتتناول مظهرهم الخارجي، ملابسهم، الروائح التى تنبعث منهم، والسمنة المفرطة التى يعانى منها البعض. كما تشمل السخرية أطباء قادمين من بيئات فقيرة، حيث يتم تصويرهم من خلال معايير طبقية واضحة، تربط بين أصولهم الطبقية الكادحة وسلوكهم السلبى فى التعامل مع المرضى، ما يجعل الرواية تتبنى نظرة ساخرة قد تصل إلى حد التمييز الطبقى فى بعض مقاطعها.

تحامل على النساء

وتظهر فى الرواية التهكمية الواضحة تجاه طبيبات النساء والتوليد، حيث جرى تقديمهن جميعاً بصورة كاريكاتورية ساخرة، تعكس سمات سلبية مبالغ فيها فلم تقدم فى الرواية طبيبة واحدة بصورة إيجابية، فهناك هدى البيلى الملقبة بـ"موسوليني" لقسوتها على من يعملون معها، فى تشبيه ساخر يشير إلى ديكتاتوريتها فى العمل. ووفاء زميلته التى لا تهتم سوى بأناقتها وسفرها مع زوجها للترفيه، دائمة التغيب عن المستشفى، مما يعكس صورة الطبيبة السطحية واللامبالية. وزميلته سعدية مسعود أسعد السعد الملقبة باسم العصبية وهى تفتقر إلى الكفاءة المهنية والقدرة على اتخاذ قرارات سليمة، مما يتسبب فى كوارث طبية. كما تهرب دائمًا من المسؤولية، ويُسلط الضوء على هوايتها الغريبة فى مشاهدة فيلم "الظهيرة". وأخيرا عصمت عوض أستاذة فى قسم التوليد، رغم أن اسمها الحقيقى نيللى ولكن أطلق عليها اسم عصمت كونها أول امرأة تعين فى قسم التوليد فتشبهت بالرجال حتى تستطيع أن تتعامل مع الوسط الذى أصبحت فيه، وتظهر فى صورة الطبيبة الانتهازية، فهى غير مؤهلة لإجراء العمليات الجراحية، وتكتفى بالجانب النظري، وتعتمد على الأطباء الجدد للقيام بالعمليات نيابة عنها. كما يتم تقديمها على أنها غير أمينة فى عملها، حيث تزور الحيوانات المنوية الضعيفة بأخرى سليمة لإنجاح عمليات الحقن المجهري، وهو ما ينكشف أحيانا عندما يكون المريض مصاباً بالعقم التام. وتظهر طبيبة أخرى فى القسم تتعمد إسقاط طالبة عندها لأنها تتذكر قريباً لها قد منحها درجة لا تروقها عندما كانت طالبة فنذرت نذرا أنه إذ وقع تحت يدها أى من طرف هذا الطبيب فستورد له الصاع صاعين وتعمد إلى إرسابها.

هذه الصورة الساخرة التى يرسمها ذهنى للطبيبات تحمل جانباً من التفرقة العنصرية القائمة على الجنس إذ لم تقدم طبيبة واحدة بشكل إيجابى فهن إما ديكتاتوريات أو غير مباليات، أو انتهازيات، أو سطحيات ولا يتمتعن بالكفاءة المطلوبة، معتمداً على أسلوب يركز على السخرية من الشخصيات دون تعمق فى دوافعها أو أبعادها الإنسانية.

المسكوت عنه

الأسلوب الهزلى الذى اختاره المؤلف لسرده لم يمنعه من فضح الواقع الطبى فى مصر إذا يقول فى ختامها أنه لم يقصد بهذا الأسلوب الهزلى أن يرفه عن القارئ ولا قصد انتزاع الضحكات منه ولا التهقهقات ولا أن يسطر هزلاً يعبث بخيال القارئ بقصص ماجنة، بل قصد مكاشفته بالمغموض الطرف عنه فى ثقافتنا الصحية العربية من فساد وجهل وقصور وإهمال وأفكار بالية وقيم عقيمة. (ص٤٧٥).

تكشف الرواية عن مظاهر فساد عدة تنخر فى القطاع الطبى فى مصر منها "الوساطة" فى تعيين الأطباء من أقرباء الأساتذة فى الأقسام وإبعاد المتفوقين من غير ذوى القرابة، بتعمد ترسيبهم فى الامتحانات، وإنشاء لجان خاصة لأبناء ذوى السلطة وتسريب الامتحانات لهم.

ويمتد الفساد فى الأدوية سواء بتعاون الأطباء مع شركات بعينها لصرف الأدوية التى تنتجها مقابل خدمات مالية تقدم لهم سواء كان المرضى بحاجة لها أو لا، أو من خلال السرقة من مخزون أدوية المستشفى الحكومية من أجل الاستفادة بها فى عياداتهم الخاصة.

وترصد كذلك غياب ضمير لدى الأطباء فى إجراء العمليات غير المشروعة من إجهاض وترقيع غشاء البكارة، واستغلال غريزة الأمومة وجعل المحرومين يدفعون مبالغ ضخمة، رغم أن التكاليف الحقيقة للعلمية أقل بكثير، ويتجاوز الأمر إلى أن بعض الأطباء يزورن فى النُطف من أجل إنجاح العملية، وتحقيق نسب مرتفعة فى علاج العقم للترويج لمستشفياتهم الخاصة.

وتسلط الرواية الضوء على استغلال الأساتذة المشرفين على الأطروحات العلمية على الأطباء بجعلهم خدماً لهم يشترون لهم احتياجاتهم المنزلية، وتنفيذ كل أوامرهم خشية أن يغضب عليهم المشرف، وتكون نتيجة هذا الغضب عدم حصول الطبيب على درجة الماجستير. ويضاف إلى ذلك طريقة اختيار المشرفين لموضوع الأطروحة لتلاميذهم ويكون عادة حول موضوع قتل بحثاً أو دون أدنى أهمية ويلجأ كثير من الأطباء إلى تزوير النتائج من أجل إكمال الموضوع بسبب التكلفة العالية للفحوصات التى يحتاجون إليها فى ظل تدنى رواتب هؤلاء الأطباء الجدد وعدم قدرتهم على الوفاء بهذه الالتزامات فى بداية حياتهم الوظيفية. خاصة وأنهم يعلمون أن الدرجة العلمية تمنح فى الأقسام بناء على محبة المشرف ورضاه للباحث وليس على كفاءته العلمية.

البعد التوعوي

وعلى جانب الآخر تحمل الرواية بعداً توعياً كبيراً، لتثقيف القارئ طبياً فيستعين بتقارير من المنظمات الدولية والمحلية مثل الأمم المتحدة، ودار الإفتاء المصرية، ومنظمة الصحة العالمية، والمركز القومى للدراسات الاجتماعية والجنائية، ويستعين بآراء الفقهاء المسلمين، ورجال الدين المسيحي، وقانون العقوبات المصرى المتعلق بالمسائل الطبية.

فقد أورد المؤلف فى نهاية عمله ٨٣ مرجعاً استعان بها فى تفنيد بعض القضايا التى يطرحها أو لذكر معلومات تاريخية حول أول من اخترع الواقى الذكري، أو أول من ابتكر التلقيح الصناعى ...إلخ. وهى معلومات مفيدة من الناحية التثقيفية لكنها تضر بنسيج البناء الروائي.

البناء الفني

ومن الناحية الفنية لم تهتم الرواية ببناء بعض الشخصيات بشكل روائى حقيقى مثل شخصية عرابى الذى يعمل كاتبا فى المستشفى تسجيل حالات دخول المرضى والخروج منها، إلا أنه يرد على لسانه أشعار لكوكبة من الشعراء مثل فاروق جويدة، ومحمود درويش، وفدى وطوقان، وأحمد مطر، ويزيد بن سفيان الخليفة الأموي، ومحى الدين بن عربي، وبدوى الجبل، ...إلخ مع أنه لا يوجد مسوغ سردى أو فنى يبرر هذه الثقافة الواسعة التى يتمتع بها عرابي. شخصية فرض عليها المؤلف حمولة معرفية لا تتناسب مع طبيعة الدور الذى تؤديه فى الرواية.

أيضًا، استعان المؤلف بهوامش توضيحية كثيرة حول الشعراء والشخصيات التاريخية التى أوردها، يمكن الاستغناء عنها بسهولة، إذ أنها معلومات معروفة للقارئ ولا تضيف قيمة حقيقية للنص السردي، بل تؤثر على انسيابية القراءة وتجعل الرواية أقرب إلى أسلوب تقريرى بدلًا من السرد الأدبى المتكامل.

وهذا الإسهاب فى إيراد الشعر، والحكايات التراثية الفكاهية، والاستعانة بالتقارير الأممية، والمعلومات التاريخية، والقانونية، والدينية، أسهم فى تضخم حجم الرواية إلى ٤٨٦صفحة، وجعل أسلوب الرواية يميل فى كثير من أجزائه إلى المقالية، مما يضر بتدفق السرد ويقلل من تأثير الجانب الأدبى فى العمل. فقد فضل المؤلف فى بعض المواضع الجانب التوعوى على الجانب الأدبي، وهو ما جعل النسيج الروائى يفقد بعض من جاذبيته الأدبية، ويصبح أحيانا أقرب إلى النقد الاجتماعى والتثقيف بدلاً من أن يكون نصاً روائياً متماسكاً.

د. عبدالكريم الحجراوي

أنوار الروح على ألواح الشفافية:

كيف يرمم الرسم على الزجاج انكسارات النفس؟

فاسيلي كاندينسكي

غابرييل مونتر

نماذج بيكاسو

نماذج للتعبير والعلاج من خلال الرسم على الزجاج

الضوء في الرسم التقليدي، أما في الرسم على الزجاج والبلاستيك الشفاف، فالضوء "يسكن" اللوحة. فاللون على الزجاج لا يستمد حياته من ذاته، بل من الضوء الذى يعبره. إنه فن يتغير بتغير ساعات النهار. اللوحة في الصباح هي قصيدة تفاؤل بظلال فاتحة، وفي الغروب تتحول إلى مرثية عميقة بظلال طويلة ودافئة. الضوء هنا ليس مجرد عامل خارجي، بل هو "الروح" التي تنفخ في جسد اللون الخام.

الشفافية تمنح الفن بعدا "مراوغا". الأسطح مثل البلاستيك والزجاج تمتلك قدرة على الانعكاس والشفافية في آن واحد. فالمشاهد يرى اللوحة، ويرى نفسه منعكساً عليها، ويرى ما وراءها من فضاء. هذا يخلق "حالة من السيولة البصرية" تحطم الحدود بين (الأنا) و(العمل الفني) و(الواقع الخارجي). إنها دعوة للتخلي عن النظرة الأحادية للأشياء.

هذا الفن يعتمد على الرسم على أحد أوجه الزجاج بحيث يرى العمل من الوجه الآخر، وهو ما يتطلب دقة فنية مقلوبة.

وهناك العديد من الفنانين المشاهير الذين تناولوا الرسم على الزجاج منهم "فاسيلي كاندينسكي" رائد التجريد، وقد استلهم هذا الفن من الفولكلور البافاري الشعبي، وقام برسم مجموعة من الأعمال التجريدية الصغيرة على الزجاج التي تميزت بألوانها الروحانية العميقة.

والفنانة "غابرييل مونتر" كانت من أبرز من أحيوا هذا الفن في بدايات القرن العشرين، وجمعت فيه بين البساطة الفطرية وقوة التعبير اللوني.

وتعد تجربة بابلو بيكاسو في الرسم على الزجاج (أو ما يعرف تقنيا . Gemmaux) واحدة من أكثر فتراته إثارة للدهشة، رغم أنها أقل شهرة من لوحاته الزيتية. بدأت هذه الرحلة في منتصف الخمسينيات حينما تعاون مع الفنان والفيزيائي الفرنسي "جان كروتي".

في اللوحات التقليدية، يسقط الضوء على السطح، أما في الرسم على الزجاج، فالضوء ينبعث من خلال العمل.

رأى النقاد أن بيكاسو نجح هنا في تحويل "المادة الصماء" إلى "روح شفافة". بدلا من استخدام الفرشاة، كان يتعامل مع طبقات من الزجاج الملون المحطم والمصفوف بعناية، مما أعطى أعماله بعدا سماويا يذكرنا بالنوافذ الكاتدرائية، لكن بروح حداثية ثائرة.

تميزت التقنية فى هذه الأعمال بتراكم طبقات الزجاج فوق بعضها البعض دون استخدام الرصاص الفاصل (كما في الزجاج المعشق التقليدي)، بل باستخدام مادة لاصقة شفافة. هذا الأسلوب سمح لبيكاسو بالحفاظ على "عنفوان" خطوطه التكعيبية مع إضافة بريق لا يمكن للألوان الزيتية تحقيقه. النقاد وصفوا هذه الأعمال بأنها "رسم بالضوء" وليس مجرد تلوين لسطح زجاجي.

لم يبتكر بيكاسو مواضيع جديدة كليا للزجاج، بل أعاد تنفيذ أشهر لوحاته (مثل "آنستات أفينيون" وصور "دورا مار").

ويرى المحللون أن إعادة تنفيذ هذه اللوحات على الزجاج كان محاولة من بيكاسو "لاختبار خلود" أفكاره. الزجاج لا يبهت، والضوء يمنح الشخصيات حياة متجددة كلما تغيرت زاوية الإنارة. لقد كان يبحث عن "النسخة المضيئة" من عبقريته

ومن المعاصرون والمتمردون على المادة ا`شيم زجاج السيارات بضربات مدروسة بدقة متناهية ليخلق بورتريهات بشرية واقعية جداً من خلال شقوق الزجاج فقط.

وديل تشيهولي. رغم أنه يُعرف كنحات زجاج، إلا أن أعماله (خاصة السلسلة التي تتدلى من السقوف) هي في جوهرها رسم بالزجاج في الفضاء. هو يتلاعب بالشفافية واللون بطريقة تجعل المنحوتة تبدو وكأنها بقعة زيتية تسبح في الهواء.

ومن الفنانين العرب الذين برعوا في هذا المجال:

– محمد زينهم (مصر): فنان وأكاديمي مصري رائد في فن الزجاج، تميزت أعماله بالدمج بين القيم التشكيلية الحديثة والتقنيات التقليدية، وله مدرسة خاصة في "الرسم بالضوء واللون" عبر الزجاج المعشق والمسطح.

– فاطمة الطناني (مصر): من أوائل الفنانات اللواتي تخصصن في الزجاج المعشق، وعملت على تحويل هذا الفن من مجرد حرفة معمارية إلى فن تشكيلي يحمل رؤية ذاتية.

– وحنان ألفي فنانة مصرية معاصرة تخصصت لأكثر من ٣٠ عاماً في الرسم على الإكريليك والزجاج، حيث تمزج بين الأيقونات القبطية والمناظر الطبيعية بأسلوب شفاف ومبهج.

ويُعد الرسم على الزجاج والأسطح الشفافة (مثل البلاستيك والإكريليك والمرايا) من الأدوات الفعالة والمميزة في العلاج بالفن (Art Therapy). ولا يستخدم هنا لأغراض جمالية فحسب، بل لخصائصه الفيزيائية التي تحمل دلالات نفسية عميقة.

ويطلب من الشخص أحيانا الرسم على وجهي الزجاج؛ الوجه الأمامي يمثل ما يظهره للناس، والوجه الخلفي يمثل مشاعره الدفينة.

إن الرسم على البلاستيك الشفاف يساعد الأشخاص الذين يعانون من "غموض الهوية" أو التشتت على محاولة "تأطير" مشاعرهم فوق سطح واضح لا يحجب الرؤية، مما يمنحهم شعورا بالسيطرة والوضوح.

وبما أن الرسم على الزجاج يتغير بتغير الضوء الساقط عليه. فاللوحة الزجاجية تبدو مختلفة تحت ضوء الشمس عنها في الظلام، كذلك مشكلات الحياة تتغير وطأتها بناء على الطريقة (أو الضوء) الذي نسلطه عليها.

أيضا يستخدم الرسم على المرايا لمواجهة "صورة الذات". الرسم فوق انعكاس الوجه يساعد في علاج اضطرابات الأكل أو انعدام الثقة بالنفس، حيث يدمج الشخص ملامحه الحقيقية مع الألوان التي تعبر عن حالته الداخلية.

ويستخدم البلاستيك والإكريليك للأطفال كبديل آمن للزجاج. ويساعد ملمس الألوان الانسيابي على البلاستيك في التخلص من القلق، لأن المسح والتعديل عليه أسهل من الورق، مما يشجع على العفوية.

ومن الفوائد النفسية المباشرة لهذا النشاط هو تفريغ الغضب، فإن النقش على الزجاج يساعد في تفريغ شحنات الغضب المكتومة، وتحسين التركيز لأن الرسم على الزجاج يتطلب دقة عالية وهدوءا، مما يدخل الشخص في حالة من "التدفق الذهني التي تشبه التأمل".

أيضا فإن ملمس الزجاج البارد ونعومة البلاستيك توفر تجربة حسية غنية تساعد في تهدئة الاشخاص الذين يعانون من القلق الحاد.

إن العلاج بالفن من خلال الزجاج أو البلاستيك ليس مجرد وسيط، بل هو مرآة للروح؛ فمن خلال تلوين شفافيته، يبدأ الشخص في تلوين الجوانب الباهتة أو المكسورة في حياته.

بقلم: د. سامى البلشى